مناجاة
للقديس أغسطينوس

مناجاة ١

مناجاة ١.

كم كانت نفسي جزعة يا إلهي،

وأنا كحملٍ ضالٍ،

حينما بحثتُ عنك بعيدًا بينما كنت أنت في داخلي!

وكلما جذبتني إليك،

نفسي تواصل البحث عنك، بدوافع رغباتي،

بينما أنت ساكن في قلبي!

أخذتُ في البحث عنك في كل مكان...

في الأحياء وفي الطرقات العامة، من مدينة هذا العالم، ولم أهتدِ!

ونظرت من حولي، وفي قصورٍ وجهلٍ، سألت رفاقي عن كنزٍ مخبَّأ في قلبي!

وأطلقت لجميع حواسي العنان، كرسلٍ أوفياء. لتبحث عنك وتطاردك...

وبقوَّتها لم تستطع أن تلحق بك، وتدركك، وقد تملَّكتها الدهشة،

كيف اقتحمتَ يا إلهي قلبي ودخلته!...

ربي، اشرح لعبدك الذي يتوسل إلى رحمتك،

عرفه من أين له حياته؟

ألست أنت مصدرها؟

أليس بك وحدك يحيا الإنسان؟

ألست ينبوع الحياة وواهبها؟

أنت خالقي، وأنا جبلتك.

يداك تفضَّلتا وصنعتاني وكوَّنتاني.

عاونتني على أن أعرفك، وأعرف نفسي.

وعندما عرفت نفسي عرفتك أيضًا، لأن معرفتي لك نور لسبيلي.

كما أن الشر حِرمان من الخير، فإن الظلمة حِرمان من النور.

ربي أشكرك... لقد ملأت قلبي من أنوارك...

ألست أنت ملك الملوك ورب الأرباب؟...

الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور لا يُدنى منه.

الذي لم يره أحد من الناس، ولا يقدر أن يراه.

له الكرامة والقدرة الأبدية (١تي ٦: ١٦).

ألست الإله العظيم المتجسد الذي ظهر في صورة بشرية غير مدركة؟

الله لم يره أحد قط (يو ١)،

كيف نعرف ما لم نكن قد رأيناه؟

ليس أحد يعرف الابن إلا الآب.

ولا أحد يعرف الآب إلا الابن (مت١١: ٢٧).

ثالوث في وحدانية تامة. في ذاته الكمال المطلق والمعرفة.

قلت لنفسي: يا لي من إنسان شبيه بالعدم قد تجاسر وعرفك!

أليست هذه المعرفة إنعامًا منك يا إلهي؟

ليس من حمدٍ يوفي نعمك.

ولا قدرة تصوِّر جلالك.

عظيم، وعظمتك لا تقارن.

لا بداية لك، ولا نهاية.

مسبَّح وممجَّد إلى الأبد. آمين.

✣ ✣ ✣

مناجاة ٢

أيّها النور غير المنظور! أيها البهاء الذي لا يراه بهاء آخر!

أنت هو النور الذي تختفي أمامك كل الأنوار المخلوقة!

أنت البهاء الذي ينطفئ قدّامه كل بهاء خارجي!

أنت هو "النور" مصدر كل الأنوار، و"البهاء" ينبوع كل بهاء!

أنت هو النور والبهاء،

أمامك تصير كل الأنوار ظلمات، وكل ضياء بالنسبة لك ليس إلاَّ ظلامًا!

أنت هو البهاء الذي بك تصير الظلمة نورًا، وبك يتلألأ الظلام لمعانًا!

أنت هو النور الأسمى،

لا تحجبك سحابة ما، ولا يعوقك بخار،

يعجز الليل عن أن يسدل بظلامه عليك،

لا يعوقك حاجز ولا تُغرِقك ظلال!

أخيرا، أنت النور الذي ينير الخليقة الداخليّة على الدوام،

ابْتَلِعْني في هوّة جلالك، حتى أعاين كل أعماقك،

بقوّة بهاء لاهوتك ذاته، وعمل البهاء المنعكس عليَّ منك!

لا تتركني قط، لئلاَّ يتزايد جهلي وتكثر شروري، فبدونك أصير فارغًا وبائسًا!

بدونك لا يكون لأحد صلاح، إذ أنت هو الحق والصلاح الحقيقي وحده!

هذا ما أَعترف به؛ وهذا هو ما أعرفه، يا الله إلهي،

أنَّه حيثما وُجِدْتُ بدونك لا يكون لي غير الشقاء – في الداخل كما في الخارج – لأن كل غني غير إلهي إنّما هو بالنسبة لي فقر مدقع!

إلهي...أنت نوري. افتح عَيني فتعاينا بهاءك الإلهي،

لأستطيع أن أسير في طريقي بغير تعثر في فخاخ العدو!

حقًا، لا يمكنني أن أتجنب فخاخه ما لم أرها! وكيف أقدر أن أراها إن لم أستَنِرْ بنورك؟ ففي وسط الظلمة يُخفي (أب كل ظلمة) هذه الفخاخ ليصطاد من يعيش في الظلمة. هذا العدو الذي يودّ أن يكون أبناؤه محرومين من نورك ومن سلامك الكامل.

فإن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر، لأنَّه ينظر نور هذا العالم،
ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه (يو ١١).
وما هو النور إلَّا أنت يا إلهي! أنت هو النور لأولاد النور!
إن نهارك لا يعرف الغروب! نهارك يضيء لأولادك حتى لا يتعثّروا!
أما الذين هم خارج عنك، فإنَّهم يسلكون في الظلام ويعيشون فيه!
إذن فَلْنَلْتصق بك يا من أنت هو نور العالم!
ما حاجتنا أن نجرِّب كل يوم الابتعاد عنك؟
لأن كل من يبتعد عنك أيّها النور الحقيقي يتوغّل في ظلام الخطيّة،
وإذ تحيط به الظلمة لا يقدر أن يميِّز الفخاخ المنصوبة له على طول الطريق!
ليتنا لا نبتعد عنك كي لا نسقط في حبائل العدو المميتة.
ولكن ما هو أَمرٌ وأقسى: أن نسقط في الفخاخ ولا ندري.
نحسب أنفسنا أنّنا واقفون فلا نبذل جهدًا لكي نقف.
ربِّي وإلهي... يا نور نفسي... لا تتوقّف قط عن إنارة خطواتي
حتى إذا ما اكتشفت الخطر أبتعد عنه فلا أسقط،
ولا يعيّرني عدوي (الشيطان)، هذا الذي يبذل كل جهده أن يُميتني.
لكن فَلْيتبدَّد العدو أمام وجهك، كما يذوب الشمع قدّام النار!
إنَّني أتكلّم عن ذلك السارق الذي أراد أولاً وأخيرًا أن يغتصب مجدك،
وإذ هو مملوء بالغرور أَلقى بنفسه في الهاوية التي حفرها لنفسه!
أنت طردته من الجبل المقدّس، وأَقصيْتَه عن عرشك،
ونزعته من وسط نجومك التي هي أكثر بهاءً في السماء!
والآن ربِّي وحياتي، إنَّه منذ سقوطه العظيم لا ينشغل إلَّا كيف يطارد أولادك!
الكراهيّة التي يكنُّها الشيطان لك أيّها الملك العظيم،
تجعله يعمل على إفساد خليقتك التي جبلتها على صورتك!
أيها الرب قوَّتي، اطرده من أمام أعيننا نحن خرافك،
وأضئ لنا جيدًا بنورك حتى نتجنب فخاخه الخادعة، ونأتي إليك مبتهجين!

✣ ✣ ✣

آه! إنّني لن أشبع إلاَّ عندما يتجلّى مجدك قدّامي!
نعم يا إلهي. فأنت وحدك القادر أن تعيد لي حياتي السعيدة.
لك أعترف ببؤسي،
وذلك عند رحيل اليوم الذي كنت فيه غارقًا بين أباطيل العالم المتعدّدة،
محرومًا منك أنت موضوع حبّي الوحيد.
ذلك اليوم الذي فيه كانت أشواقي الجسديَّة مشتّتة في المباهج الخادعة.
وما أكثر هذه المباهج تلك التي تحمل في بهجتها أتعابًا لا حصر لها؟!
هذه المباهج وعدتني بأمور كثيرة، ومع ذلك فهي لم تجلب عليَّ سوى الفقر.
انتقلت من واحدة إلى أخرى، لعل إحداها تقدر أن تشبع نفسي،
لكنّها عجزت، إذ لم تكن نفسي تحيا بعد إلاَّ فيك!
حقًا، إن فيك الجمال، يا من وحدك سرمدي، وسام، وكامل على الدوام!
من يقتفي آثارك لن يضل قط! من يصلِّ إليك لا يلحقه يأس!
من يمتلكك تشبع كل رغباته! لكن يا لبشاعة بؤسي!
ويحي يا إلهي، فإن قلبي يميل إلى الهروب منك؛
الهروب منك أنت أيّها الغني الحقيقي والفرح الحقيقي،
لكي يتبع العالم الذي ليس فيه إلاَّ الحزن والألم.
إلهي، إني أحبّك وشوقي هو أن تزداد محبّتي لك على الدوام.
بالحقيقة أنت أفضل من اللبن وأحلى من الشهد،
وأكثر ضياء من كل نور.
الذهب والفضة والأحجار الكريمة لا تقارن بك في داخل قلبي.
كل مسرّات العالم لا تَظهر لي إلاَّ كرائحة كريهة وبلا طعم...
إذ قد تذوّقت عذوبتك مرّة، ورأيت جمال بيتك.
أيها النار الإلهي، يا من لهيبك لا ينقطع بل هو دائم الحرارة.
أيها الحب الدائم الحرارة، يا من لا تفتر قط.
أيها الحب الإلهي احتضني. امتلكني بكليّتي فألتصق بك تمامًا...
ليتني أحبّك يا إلهي لأنّك أحببتني أولاً.
إن وُجد فيَّ شيء صالح، إنّما مصدره أنت،
فالخير الذي هو فيَّ هو خيرك أنت أيّها الصالح،
منكَ قد تقبّلتُهُ! من يُعينني على الوقوف إلاَّ أنت يا إلهي؟!
وما الذي يُسْقِطُني غير اتّكالي على ذاتي؟!

إنَّني سأبقى غارقًا في الطين ما لم تجتذبني!
وأبقى أعمى ما لم تفتح عينيّ! وأبقى ساقطًا لا أقوم قط ما لم تُعينني يداك!
إنَّني أهلك تمامًا ما لم تحرسني عنايتك!
✣ ✣ ✣

مناجاة ٤٣

كم أنا بائس؟!
إلهي... متى تفارقني هذه الطبيعة الفاسدة، وتعمل قوّتك الكاملة في؟!
إلهي... لذيذة هي الوحدة والسكون والحق والنقاوة،
هذه كلّها التي هي لك!
أمّا أنا فألهو بالضوضاء والصخب والباطل والرذيلة!
أعود فماذا أقول بعد؟!
أنت هو الخير الحقيقي، رحوم، قدُّوس، عادل...
أمّا أنا فشرّير، محب لذاتي، خاطئ، ظالم!...
أنت النور، أمّا أنا فظلمة!
أنت الحياة، أمّا أنا فموت!
أنت الطبيب، أمّا أنا فمريض!
أنت الفرح، أمّا أنا فحزن!
أنت الحق الصادق، أمّا أنا فبطلان حقيقي،
مثلي مثل أي إنسان على الأرض!
بأية لغة تريدني أن أحدّثك يا خالقي؟!
أتوسّل إليك أن تتفضّل فتُصغي إليّ.
إنَّني من صنع يديك، وهلاكي أمر مخيف!
إنّي جُبلتك، وها أنا أموت!
إنّي من صُنْع يديك، وها أنا أنحدر نحو العدم!
إن كان لي وجود، فأنت مُوجدي، "يداك صنعتاني وأنشأتاني" (مز ١١٩: ٧٣). يداك اللتان سُمِّرتا على الصليب، فَلْيُعطياني السلام؛ لأنَّه هل تحتقر عمل يديك؟!
أه: أتطلّع إلى جراحاتك العميقة، فقد نقشتَ اسمي في يديك!
اِقرأْ اسمي وخلّصني!
إن نفسي التي تتأوه قدّامك، هي من عمل يديك.
اخلق منّي خليقة جديدة؛ فهذا هو عملك.

لذا فهي لا تكف عن الصراخ إليك قائلة:

"يا أيّها الحياة، أَحْيني من جديد!"

إنَّها من جبلة يديك، تلتف حولك متوسّلة إليك أن ترد إليها جمالها الأول!

اغفر لي يا إلهي، مادمتَ قد سمحتَ لي بالحديث معك.

لأنَّه من هو الإنسان حتى يتكلّم مع الرب خالقه؟!

نعم. سامحني! سامح تجاسري!

سامح عبدك الذي تجاسر ليرفع صوته أمام سيده!

إن الضرورة لا تعرف قانونًا!

فالألم يدفعني إلى الحديث معك!

والكارثة التي حَلَّت بي تجعلني أستدعي الطبيب لأنّي مريض!

إنَّني أطلب النور لأنّي أعمى!

أبحث عن الحياة لأنّي ميّت!

ومن هو هذا الطبيب والنور والحياة إلَّا أنت؟!

يا يسوع الناصري ارحمني!

يا ابن داود ارحمني!

يا مصدر الرحمة، أصغِ إلى صرخات المريض!

أيها النور العابر في الطريق، أوقف الأعمى!

اَمْسِك بيده، حتى يقترب إليك!

بنورك يا رب اجعله يعاين النور، وبك يحيا!

أتوسّل إليك أن تأمر الميّت حتى يخرج من القبر!

آه! يا إلهي! إنَّني سأستغيث بك قبلما أهلك،

أو على الأقل أستغيث لئلاّ أهلك،

حتى اَستحق السُكني فيك!

إنّك تتألّم عندما أُحدِّثك عن بؤسي،

ومن غير خجل أعترف لك إنَّني عدم!

أسرع وأعِني، أنت قوّتي

وعوني وصلاحي وحصني!

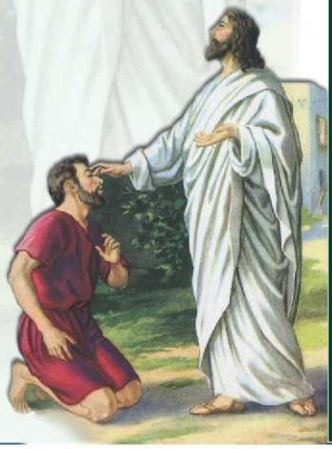

أسرع أيّها النور، الذي بدونه لا أقدر أن أرى!

عَضِّدْني أيّها المجد الأبدي، يا فرحي، اِكْشِفْ لي ذاتك يا إلهي حتى أحيا!

فمن يقدر أن يميّز طرق مكره المختلفة؟!

من يقدر أن يُحصِي أنيابه المرعبة؟!

سهامه يخْفيها في جعبته، وحيَله يخبئها إلى اللحظة المناسبة للسقوط!

إلهي... أنت رجائي... بدون نورك – الذي به نرى كل شيء – يصعب علينا أن نكتشف مناورات الشيطان وحيله.

✣ ✣ ✣

مناجاة ٥٠

إلهي... ترى أين أجد لسانًا يقدر أن يعبّر عن المجد اللائق بك، من أجل نعمتك المجّانيّة؟!

خلقتني إذ لم أكن؛

وأوجدتني بإرادتك؛

ومن قبل أن أوجد، كان لك المجد اللائق بعظمتك.

إلهي... أنت بذاتك هو المجد الحقيقي،

فليس لي إذن أن أدعو خليقتك لتخبر بعظائمك.

القلب يصغر عن أن يحوي عظائمك،

والنطق يعجز عن أن يحدّها،

والسمع لا يقدر أن يدركها..

هذه كلّها تفنى، أمّا عظائمك فباقية إلى الأبد...

الفكر له بدايته ونهايته،

والصوت لا يلبث أن يتبدّد صداه، تسمعه الأذن ثم لا يلبث أن ينتهي،

أمّا عظمتك فباقية إلى الأبد.

تُرى من يقدر أن يسبِّحك ويمجّدك كما يليق بعظمتك؟!

لذلك أعود فأكرّر أن مجدك دائم لا يتغيّر.

أيها المجد الأبدي، يا الله إلهي، ينبوع كل مجد راسخ،

بدونك أعجز عن أن أمجّدك، لأن خارجًا عنك ليس إلاَّ المجد الباطل.

إذن، أَسرِعْ إليّ فأمجّدك!

حقيقة، من أنا حتى أرفع اسمك؟!

أنا لست إلاَّ ترابًا ورمادًا، كلبًا ميتًا ونتنًا، دودة حقيرة، جثّة هامدة قابلة للفساد...

نعم، من أنا حتى أمجّدك، أيّها السيّد الفائق،

الملك الأبدي، الله،

الذي نسمة فمه أفضل آلاف المرّات من الكائنات الأرضيّة.

فهل للظلمة أن تمجّد النور، أم الموت يُسبِّح الحياة؟!...

يا الله إلهي، تُمجَّد أنت بحسب قدرتك ولانهائيّة حكمتك، واتساع حنانك،

تُمجَّد في رحمتك الحقيقيّة، وعطفك وكمالك الأبدي، وعظمة لاهوتك.

تُمجَّد في جلال قدرتك الفائق، ومحبَّتك المترفّقة التي دفعتك لخلقتنا يا إلهي،

يا حياة قلبي.

عيناك يا الله منجذبتان نحو خطوات البشر.

إذ أنت مهتم بكل خليقتك، لا تحرم أحدًا من جُبلة يديك عن فيض حبّك!

أنت بنفسك تهتم بخطواتي وطرقي ليلاً ونهارًا،

تسهر على رعايتي، وتلاحظ كل سبلي، لا تكف عن الاهتمام بي،

حتى ليمكنني أن أقول: أنّك تنسى السماء والأرض وما فيهما،

مُركّزًا اهتمامك عليّ، فتبدو كمن لا يهتم بخليقة سواي!

أنت تحتضن وجودي برعايتك إيّاي رعاية كاملة دفعة واحدة،

وتحتضنّي على الدوام، كأنّك لا تتطلّع إلى آخر سواي!

تسهر عليَّ، وكأنّك قد نسيت الخليقة كلها!

تهبني عطاياك، وكأنّني وحدي موضوع حبك!

بصلاح حلولك الدائم في كل مكان، تسرع إليّ بمعونتك على الدوام،

متى وجدتني متأهّلاً لقبول عونك.

إلهي... حيثما أكون أجدك أمامي، لأنّك حال في كل مكان.

وبنعمة حلولك هذا أتقابل معك أينما

أكون حتى لا أهلك،

فبدونك ليس لي وجود.

إنّني أعترف لك أن كل أعمالي، أيّا كانت طبيعتها،

هي مكشوفة قدّامك، تتطلّع إليها أكثر منّي، وتعرف فاعلها.

إنَّه لا يوجد قط شيء أنت لا تعرفه...

أفكاري ومقاصدي وأفراحي وأعمالي،

ليس شيء من هذا غير مطروح أمام اهتمامك الأبدي.

إلهي... أنت تعرف أفكاري في أعماق غموضها.

إلهي... أنت لا تجهل جانبًا ما من جوانب روحي.

✣ ✣ ✣

تطويب للقديسة مريم للقديس مار اسحق السرياني:

افرحي! افرحي أيتها السيدة أم الرحمة والحياة والعذوبة ورجائنا،

إليكِ نصرخ نحن أبناء حواء في المنفى؛

نتطلع إليكِ في تنهدٍ وعويلٍ في وادي الحزن هذا.

لذلك فلتحولي عينيك الحنونتين إلينا، يا أيتها المدافعة عنا،

وبهذه النظرة أظهري لنا يسوع، الثمرة المباركة لرحمكِ،

يا أيتها العذراء مريم العذبة!

✣ ✣ ✣

---

١ ترجمة بانوب عوض. *Soliloques de Sainte Augustine ou LE'ntretien de lA"me Avec Dieu*

٢ عن كتاب: الله فردوس نفسي.

٣ عن كتاب: الله فردوس نفسي.

٤ عن كتاب: الله فردوس نفسي.

٥ عن كتاب: الله فردوس نفسي.

القمص تادرس يعقوب ملطي.

آباء الكنيسة ٣